## ١٧

# مجتمعات مأزومة
# وسلطات فاجرة*

الصورة الشخصية اليتيمة التى تزين حوائط منزلى، تعود إلى عام ٢٠٠٣، حينما بدأت نذر حرب العدوان الأمريكى على شعب العراق تلوح فى الأفق، ساعتها تنادت القوى والشخصيات الوطنية والقومية فى مصر والوطن العربى، وأحرار العالم من المعارضين للحرب، وأتموا فى القاهرة عقد مظاهرة سياسية كبيرة، داعمة للشعوب العربية ونضالها ضد القهر والعدوان الإمبريالى والصهيونى، تحت مسمّى «الحملة الدولية ضد الاحتلال الأمريكى والصهيونى (the International compaign ajainst U.S. & Zionist Occupations)، واختار المحتشدون بالإجماع الرئيس الجزائرى الأسبق «أحمد بن بللا» رئيسا لسكرتارية الحملة، التى استمرت تعقد اجتماعاتها لعدة سنوات تالية، وفى هذا اليوم التُقطت لنا الصور التذكارية، التى كان منها صورته وأنا أجلس بجانبه، وهو يمسك يدى بحنو الأب، وثقة الزعيم، وقوة المناضل، ونحن نتحدث عن شئون وشجون أمة العرب، المبتلاة بالاستبداد والاستهداف، من الداخل والخارج.

### أطياف بائدة؟!

استعدت ملامح هذه الصورة الدالة، وأطياف من ذكريات مصر والمنطقة، فى خمسينيات وستينيات وسبعينيات القرن الماضى، تمر

* جريدة «الأخبار» اللبنانية ـ ٢٠٠٩/١٢/٢.

بخاطرى: وأنا طفل صغير أدرج إلى مراحل الصبا، تلميذ فى الابتدائى، ثم الإعدادى، والثانوى، ثم طالب الجامعة: مظاهرات التأييد لكفاح شعب الجزائر، صورة البطلة «جميلة بوحيرد» فى كتب المدرسة وعلى طوابع البريد، الثورة الجزائرية ورموزها من القادة المختطفين، وعلى رأسهم «بن بللا»، الذين أصبحوا أمثولة لنا وقدوة، أرتال الشهداء الذين تغنينا بدمائهم الذكية وهى تروى أرض الجزائر الطاهرة، النشيد الوطنى الجزائرى، الذى لحنه الموسيقار المصرى الراحل «محمد فوزى»، يدق أسماعنا بقوة: «قد عقدنا العزم أن تحيا الجزائر»، جموع المصريين من خبراء وعلماء وأساتذة وأطباء، الذين ساهموا فى بناء صرح الجزائر الحرة، المساندة العسكرية الجزائرية الأخوية لمصر بعد حرب ١٩٦٧ .

**يوم الغضب!**

تذكرت كل ما تقدم، بأسى، وأنا أستمع لطبول «الحرب الكروية» وهى تدق بقوة فى وهران كما فى القاهرة، ومارشالات القتال يحرضون الملايين من المحبطين والفقراء والجوعى والباحثين، عبثا، عن لحظة انتصار مستعص، أو كبرياء مفقود، أو وطنية مهدرة!، فى البلدين، بعضهما ضد البعض، أملا فى صرفهما عن التفكير الخطر فى الواقع المتردى، والمستقبل البائس!، تذكرت ذلك وأمامى مانشيت صحفى لجريدة غير حكومية، اسمها «الجيل»، صدرت قبل ثلاثة أيام فقط من «موقعة السودان»، ١٤ نوفمبر/ تشرين ثان، ٢٠٠٩، وكلماته تقول: «تسقط الحكومة التى فشلت حتى فى نظافة شوارع القاهرة»، ومانشيت آخر لجريدة «المصرى اليوم»، المستقلة، بعد الموقعة بأسبوع واحد، يقول: «يوم الغضب»: مظاهرات (قاهرية) حاشدة تطالب بـ «رد الاعتبار» وطرد السفير الجزائرى (من مصر!)، اشتباكات مع الأمن وحرق العلم الجزائرى، ومقتل ١٤ جزائريا، وإصابة ٤٠٠ آخرين فى احتفالات «دموية» بالجزائر!

وتحته مباشرة خبر مطول عن موظف بالإسكندرية يحاول الانتحار لعجزه عن شراء «كيلو لحم» لأسرته قبل العيد، وفى نص الخبر أن «أحمد محمد رشاد»، الموظف بشركة أتوبيس غرب الدلتا، بعد أن وقف عاجزا أمام محل الجزارة، لإدراكه أن راتبه الشهرى (الذى يبلغ ١٦٨ جنيها، أى نحو ثلاثين دولارا لا غير، بواقع دولار واحد يوميا)، والذى يعتاش منه هو وأسرته كبيرة العدد، دون مصدر آخر للدخل، لن يمكنه أبداً من أن يحمل إلى أسرته ذات مرة، قطعة لحم صغيرة، يشتاقون إليها فصعد إلى أعلى نقطة فى محطة تقوية شبكات الجوال، فى منطقة سيدى جابر، محاولا الانتحار، «لأن مجمل راتبه الشهرى لا يكفى إلا لشراء ثلاثة كيلو جرامات من اللحوم».

## مجتمعات مأزومة.. وسلطات فاجرة

فى مصر، كما فى الجزائر، يحكم نظامان بوليسيان، فاشلان، عاجزان عن حل معضلات الحياة فى المجتمعين، المتراكمة عبر العقود، رغم الفرص والثروات والإمكانات الهائلة، المنهوبة بواسطة حلف البيروقراطية الحكومية الفاسدة مع الطبقة الاحتكارية الجديدة، التى نمت وازدهرت أعمالها، فى العقدين الأخيرين، بفعل تداخل السلطة مع الثروة، والاستنزاف الضخم للثروة العامة، فى ظل تطبيق سياسات «الليبرالية الجديدة»، الأمر الذى فاقم من مشكلات الفقر، والبطالة (وخاصة فى أوساط الشباب)، وضاعف من وتيرة التدهور العام فى الصحة وأنظمة التعليم والخدمات العامة، وبالذات فى الأقاليم البعيدة عن العاصمة والأنظار، ما أدى إلى تحويل القاهرة الجميلة، على سبيل المثال، من عاصمة «أم الدنيا». إلى «دولة» عجوز، تعدادها يقرب من العشرين مليونا، تعج بالزحام والضجيج والفقر والتلوث، جنبا إلى جنب مع مظاهر الغنى الفاحش، والثروات الخرافية، لنخبة المجتمع المخملى، (التى لا يزيد

عددها عن مليون فرد، من إجمالى تعداد المواطنين الذى تجاوز الثمانين مليونا.

وقد تسببت هذه الحالة، التى تزداد سوءا مع مضى الأيام، فى اندلاع الآلاف من أعمال العنف الشعبى وأشكال الاحتجاج السياسى والاقتصادى، التى اجتاحت مصر، فى السنوات الأخيرة، منذ مظاهرات «حركة كفاية» قبل خمس سنوات، التى خرجت فى مواجهة السلطة، رافعة شعار «لا للتمديد» لحسنى مبارك الذى يحكم مصر منفردا منذ ما يقرب من ثلاثة عقود، و«لا للتوريث»، لجمال، نجله، الذى تُهيأ الأوضاع لتوليته رسميا فى المستقبل المنظور.

وتهدد هذه الحالة بالتصاعد المؤكد، خاصة مع اتضاح العجز التام لجهاز الدولة المترهل الفاسد، عن الوفاء بأبسط مهامه، كتوزيع مياه الرى والشرب، (وهى وظيفته الأولى منذ نشأة الدولة المركزية المصرية التليدة)، أو حفظ الأمن العام (بعد اختزاله فى أمن الرئيس وأسرته والحاشية)، أو حماية المصالح الوطنية الخارجية، أو حتى على مستوى أضيق، كتنظيف شوارع البلاد من القمامة المتراكمة، أو كفالة انسياب المرور الذى يعانى من اختناق كبير، أو مكافحة التلوث الذى يسجل واحدة من أعلى المعدلات العالمية، وإلى غير ذلك من القضايا المعيشية التى تهم القطاعات الأوسع من المجتمع .

وإزاء هذه الوضعية البائسة فى مصر، والتى لا تختلف كثيرا عن واقع الجزائر، لم يكن غريبا أن تُدق طبول الحرب، وتُستعاد فى الإذاعة والتلفزيون مارشات القتال، وأناشيد العبور عام ١٩٧٣، لكن هذه المرة للتعبئة فى مواجهة الأشقاء، وأن تنهمر مئات البرامج التلفزيونية والإذاعية، وآلاف الأحاديث والمقالات الصحفية، وعلى شبكة الإنترنت، كلها تصب فى تسعير نيران الفتنة الكروية، وتحويلها من مجرد مباراة



obeikandi.com

رياضية، إلى حرب ضروس، تشبه حرب داحس والغبراء المشئومة، الشهيرة فى التاريخ العربى القديم، فحرب «الأخوة الأعداء» مطلوبة بشدة الآن، إنها وسيلة (نموذجية!)، لإلهاء الملايين عن المطالبة بالحقوق والثورة على المظالم، ولتبديد مظاهر الاحتقان الشعبى التى تنذر بخطر ماحق، ومع اقتراب سنوات الجمر، (٢٠١٠ ـ ٢٠١١)، التى يجب فيها حسم مستقبل الحكم والنظام السياسى، وإنهاء ملف «التوريث»، وتأكيد سلطة تحالف الفساد والاستبداد، لعقود أخرى قادمة، وجب حرف الأنظار عن الواقع المتردى، و«اختراع» عدو مناسب، توجه إليه طاقة الغضب والانفعال والثورة والانفجار، الذى يهدد النظام فى ركائزه المتداعية، ويشير إلى أن السلطة المباركية تفقد، شيئا فشىء، إن لم يكن السيطرة على الحاضر، فالمؤكد سطوتها على المستقبل!.

وقد جاء ت مباراة الكرة، التى تحولت إلى مباراة فى الكراهية، والتى دارت فصولها فوق ملاعب الكرامة المهدرة، والكبرياء المجروح، و«الوطنية» الشكلانية، فى التوقيت المناسب تماما.

وفيما كانت إسرائيل تقضم مساحة أخرى من أرضنا، وأمريكا والغرب والعرب ينفضون أيديهم من المسألة برمتها، انفجرت الحرب الخطأ، فى التوقيت الخطأ، التى غذتها سلطات فاجرة، لا تتردد فى إشعال نيران الكراهية، وبث سموم الفتنة، بين الأهل والأشقاء، حفاظا على الكرسى اللعين!

وبعدها بأيام استقبل حسنى مبارك، الرئيس الصهيونى، شمعون بيريس، ومجرم الحرب، الملوثة يداه بدم الأبرياء من أهلنا!.

■ ■ ■